قبر مفقـــود

للدكتور عبد الوهاب عزام

قال صاحبي : هذا مسجد النبي دانيال ، فولجنا الى الفناء فاذا جماعة من السوّال جالسين الى الجدار كأنهم موتى أعوزتهم القبور ، قال صاحبي : وهذا البناء مقبرة . فملنا ذات اليمين الى رجل واقف بباب البناء عرفنا من موقفه وأوامره أنه قيّم المقبرة

— السلام عليكم

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، هل من حاجة ؟

— يا سيدى : شاعر من شعراء الترك ووزير من وزرائهم قدم الى مصر أيام محمد على باشا ومات بهذه المدينة ودفن بجوار النبي دانيال ، فهل تعرف عن قبره خبراً ؟

— أكان وزيراً فى مصر ؟

— كلا ، ولكنه مر بمصر حاجاً ثم عاد اليها بعد الحج فمات بالاسكندرية

— هذه مقبرة لأسرة الأمير عمر ، يا محمد ! اذهب معهما الى المقبرة القديمة ، أليست مفتوحة ؟

— لا ياسيدى ولكن فتحها يسير . فهناك ابراهيم

سرنا وراء الرجل يسلك بنا مضايق فى فناء المسجد حتى انتهى الى زقاق ضيق يفضى الى باب مرتفع ، فنادى ابراهيم وكلمه فجاء يحمل المفتاح ، وتقدم نحو الباب ففتحه ثم القى خشبة ضخمة على كوم من الحطب أمام الباب فارتقى عليها ودخل فاتبعناه :

سور قصير يحيط بعرصة واسعة فيها ارتفاع وانخفاض وأكوام من التراب وأكداس صغيرة من الأحجار ، يبدو بداخلها قبران الى اليمين عليهما نُصُبان من الرخام ، واذا أنعم النظر تبين قبرين دارسين او ثلاثة فى أرجاء أخرى

قال ابراهيم : ليس هنا الا القبران اللذان ترى ، فتأملت كتابة تركية فقرأت مافى سطور الفناء من عظات وتواريخ وأسماء ، فاذا اسمان آخران ودفينان مضى عليهما زهاء ثمانين عاماً . فجلت فى أرجاء المقبرة فرأيت قبرا عليه نصب واقع يتضمن اسما آخر ، ثم مررت بقبر لا نصب عليه ، وبنصب لا قبر له : بطشت يد الزمان العسراء ، ببقايا الفناء !

تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

لبثت حينا أسائل القبور والأحجار فلم تحر عن الشاعر جوابا . فرجعت الى ابراهيم فقال : كانت هذه الأرض كلها قبورا فذهب بها الحَفْر . قلت أى حفر ؟ قال : قلبوا الأرض يفتشون عن قبر الاسكندر . وقد أخرجوا ماضمنته الأرض من أحجار وعظام الى عشرين مترا فلم يظفروا بشيء . قلت انها لتعزية : إن فقدنا قبر شاعرنا فقد ضلّ فى ثنايا الأرض وظلمات التاريخ قبر الملك العظيم الفاتح الاسكندر بن فليب ، انها لتعزية !

رجعنا الى صاحبنا الذى أشار بالذهاب الى المقبرة القديمة فقال:

— هل عثرتم على القبر المنشود ؟

— لا . رأينا قبورا قليلة ، وقرأنا ماوجدنا من أنصاب فلم نجد قبر عاكف باشا

— هنا مقبرة سعيد باشا . أيمكن أن يكون مدفونا هنالك ؟

— ليس بعيدا فقد حدث التاريخ أن محمد على باشا أحسن وفادته وبالغ فى الحفاوة به . فليس بدعا أن يكون قد أمر بدفنه بين قبور الأمراء .

— يافلان (قيم مقبرة سعيد باشا) وكان بجانبه ، ادخل بهما لعلهما يجدان القبر ، فأحسبنى رأيت هذا الاسم على بعض القبور

— عندى أوراق فيها أسماء القبور كلها فتفضلا معى .

ودخل الى بَهْو به مكتب ، فأخرج ورقتين فيهما أسماء معظمة لأمراء وأميرات ، أسماء كانت عناوين حياة حافلة بالعظمة والرفاهية ، مليئة بخطوب الزمان ، ونوب الأيام ، وما هى الآن إلا أسماء قبور . ماوجدت « عاكف باشا » بين الأسماء ، فشكرت الرجلين وانصرفت .

قال صاحبي : لم تعثر عليه

قلت : أجل ، ولكنى أعلم أنه فى باطن الأرض ، فان يكن لابد لشاعرنا من قبر ، ! فهب الأرض كلها قبره : ياأخى ، انما يخلد الناس بالآثار ، لا بهذه الأحجار . وقد صدق جلال الدين الرومى إذ قال :

بعد أزوفات تربت ما درزمين مجوى
درسينه هاى مردم عارف مزار ماست:

فلا تطلبن فى الأرض قبرى فانما
صـــدور الرجال العارفين مزارى(١)

اسكندريه ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٣ عبد الوهاب عزام

(١) مزار كلمة مشتقة من الزيارة وهى تقال للقبر فى الفارسية والتركية وقد آثرت ابقاءها فى الترجمة